المـــازنى فى عهدين

بين ابراهيم الكاتب وابراهيم الثانى

للأستاذ غائب طعمة فرمان

وصف المازنى ابراهيم الكاتب بقوله :

« إن أبرز مزاياه كانت أن أسلوبه صورة لنفسه الحية الحساسة المتوقدة — وكان دأبه أن يدور بعينه فى نفسه ليطلع على كل ما فيها ، وأن يجيلها فيما هو خارج عنها ليحيط بكل ما وراءها — ولكن قلما رأى شيئاً خارجها إلا من خلالها — »

— ومن خلال هذا الوصف أعطانا المازنى صورة واضحة العالم دقيقة السمات لنفسه — تلك التى ترى الأشياء من مرآتها الخاصة وتبث من خلجاتها حياة فيها —

والمازنى لا يفتأ يتحدث عن نفسه ، وينفذ إلى أعمق أعماقها ، ويسبر أغور أغوارها ، ويطلع على أخفى خفاياها — ثم يرى العالم من خلالها ليتعرف على أسرارها !

فإذا بتلك السلسلة المتصلة الحلقات من التجارب الإنسانية تصبح مادة أدبه ، وإذا بذلك النهر المتجمع من قطرات أيامه وسنيه يمد المازنى بمعين لا ينضب من الأدب الرفيع .

وتحت معاول الهزات النفسية ، والجذبة فى رحلاته الطويلة فى عالم الفكر والشعور تربت نفسه ، وتهذبت ، واعمى بريقها الكاذب وبدت خالصة من الشوائب ، ناصعة الجوهر — فإذا هو يستريح بها ، ويحيا لها ، وفى سبيلها يسعى ، وبها وحدها يغنى .

« أى — أى ! » فطفرت من عينه عبرة حرّى لأنه أحس — فى يوم ما — أن فقد الأم يخز القلب وخزات جاسية غليظة ، ولأنه استشعر لذع الخيانة يسم حياته بسمات الخزى والمهانة ، ويسربل أولاده بلباس السبة والعار .

آه ، يا لقلبى ! إن الزوجة حين ترتدع فى حمأة الخيانة تسلن عن أن صحبها لم يشعر يوماً بالمعانى السامية والشرف والكرامة .

كامل محمود حبيب

فإذا أسلمنا بهذا حملنا إلى الشك فى قول المازنى بأنه « ليس ابراهيم الكاتب الذى تصفه الرواية ؛ وإن هذا المخلوق ما كان قط ، ولا فتح عينيه على الحياة إلا فى روايته » فتلك مغالطة أعظم بها من مغالطة ، وتنكب عن واقع الحياة ، وهروب من لذعات السنين الماضية ، وذكرياتها المريرة التى قد تكون شديدة الوطأ على نفسه ، قاسية الوقع على شعوره — وما تلك الفروق بين ابراهيم المازنى وابراهيم الكاتب إلا ضرب من الخادعة واللف يلجأ إليه المازنى فى كثير من الأحايين .

وقد تثير المازنى السنون فيبدو لمبتيه ابراهيم الكاتب — وهو يمثل طوراً من أطوار حياته — رجلاً غريباً « لا تعجبه سيرته ولا مزاجه ولا التفاتات ذهنه » . فينفر منه ، ويجفوه لاختلافه فى الاحتفال بالحياة والأعراض عن الدنيا ، والوعورة فى الأخلاق والنفور من الناس ، والمرارة من الواقع الأليم ، والرضى بما هو كائن —

فالمازنى الشاب بنزوات قلبه ، وخفقات روحه ، وتسابيح خياله ، وانشراح عواطفه قد مضى — وخلف ذكريات مرة مسجلة على صفحات « ابراهيم الكاتب » .

ولست أدرى كيف استساغ المازنى أن ينفى كونه ابراهيم الكاتب بعد أن قال فى الصفحة الأولى من المقدمة :

بدأت هذه الرواية فى سنة ١٩٢٥ ثم عدلت من إتمامها ، والقضى فيها وبها إلى غايتها ونهايتها إلى شتاء ١٩٢٦ فاتفق فى ذلك الوقت أن عرفت سيدة نمسوية تزاول الصحافة والتعليم فى آن معاً ، وتوثقت بيننا الصداقة على الأيام — فقد طال مقامها هنا — فأطلعتنى على صفحة من حياتها حافلة بالكروب والمتاعب ، ولما كنت لا أعرف لى ، مع الأسف ، تاريخاً يستحق الذكر ، أو حياة جديرة بأن يصغى إليها ، أو يطالع عليها السامع أو القارىء ، ولما كنت مهما فى موقف يقتضانى أن أجازيها بتأييد ، وأن أقول لها بشجوى ، كما قالت لى بشجوها ، فقد ركبنى عفريت الذى استراح إلى كتمان ، واطمأن إلى استسلامى لقضاء الله فى مع فقصصت عليها حكاية الرواية — كما كنت أنوى أن أكتبها — وزعمت أن هذه قصة حياتى !!! ولما كانت حياتى مستمرة فقد احتجت وأنا أسرد عليها هذا التاريخ المبتدع أن أجعل الختام باباً مفتوحاً »

... ثم وصف المازني لابراهيم الكاتب وصفاً لا أظن الذين راوا المازني برأى العين يفوتهم هذا التشابه الجسمي بين ابراهيم الكاتب وابراهيم المازني ...

كل هذا يدفعنا إلى أن نقر بأن المازني قد سجل في ابراهيم الكاتب عهداً من عهود حياته ، عهداً مليئاً بالمزات النفسية ، عهداً بذر بذور التشاؤم في نفسه ، وأسلمه إلى شيء يشبه القنوط ، عهداً لم يخل من أخطاء وزوات وذلات وهفوات ، حتى اضطره آخر الأمر إلى أن يفكر ذلك الرجل الذي يهرب من العقل ، ويغور في كهوف العاطفة ، ويهوم في مسارحها العميقة ..

و « ابراهيم الكاتب » قصة رحلة ، تبدأ بإخفاق ، وتنتهي بإخفاق .. ويظل القلب الذي شهد فصولها يتألم من الحاضر ، ويتعذب بالماضي الدفين .

وتبدأ هذه الرحلة حين يذهب ابراهيم إلى الريف ، بعد موت زوجته ، وخروجه من المستشفى وهو مجروح القلب ، يعذبه حب مارى ... يذهب إلى الريف ليلوذ ، وليقضي وقتاً في أحضان السكون ، ومراتع الطبيعة الربيعية الهادئة ، بعيداً عن ضوضاء المدينة ووساوس الحب وآلامه .. ولكنه لم يدر أن القدر يترصده؛ فيقع في حب ثان أعنف وأشد ... هو حب شوشو بنت خاله ، تلك الفتاة الغريرة بنت السابعة عشرة ، وذات العينين العميقتين السوداوين المعبرتين عن طبيعة صاحبتها ، والمفصحتين عن حقيقة جوالها ، الخلوة النفس ، الخفيفة الروح ، الظامئة إلى المجهول .

ولكن المرارة دائماً تغمر قلب المازني ، واليأس يصحبه ، والإخفاق يطارده ؛ فالحب الذي اضطرمت ناره في صدر العاشقين ، وجريا معه في مجاريه يتحطم على أعتاب تلك القوة الناشئة ... قوة التقاليد ... فيسافر ابراهيم إلى الأقصر ليدفن هواه الجريح ، ويوامي قلبه المضطرب ، وليتسلى عما أصابه من إخفاق .

وكأن القدر يلذ له أن يحرك الأنار المرهفة من قلب ابراهيم ، فهناك يلاقي فتاة مصرية تدعى (ليلى) .. وسرعان ما يختلج في فؤاده لهيب العاطفة التي تعذب بها ، وصلى نارها ، فينجرف في تيارها إلى الشاطىء ذي الأشواك .. شاطىء الحب العارم ، فيوغل في حب ليلى ، ويندفع معها إلى جنان الفاكهة المحرمة ! .

ولكن ذلك الشيطان الظالم — الإخفاق — دائماً يظله بأجنحته السوداء ، فيصاب بالمرض ، أعلب الظن أنه أورثه تلف الأعصاب ، وخلق منه ابراهيم الكاتب .

وبعد تلك الرحلة الفنية يسلم نفسه إلى كآبة عميقة ، ويأس مرير — وفي خلال صفحات الكتاب نرى نفسه الحساسة المرهفة كيف تتعذب ، وكيف تشقى بإحساسها — فالحياة لم تنر لها الطريق ، ولم تهدها إلى نعيم الاستقرار ، فظلت هائمة لا يثوب إليها الاستقرار ، ولا تركن بزورقها الحائر إلى شاطىء الهدوء .

فلا غرابة — إن اتجه ابراهيم الكاتب إلى التشاؤم بعد هول العاصفة ، يلوذ بكهوفه ، يرضي فيه نفسه الجريحة ، ويحاول أن يحسب الألم عنصراً من عناصر الحياة :

« اسمعي يا ثوثو — لقد أعاب بنا تنشه أن نحيا حياة خطرة — ولكني أقول إنه ينبغي أن نحيا حياة مؤلمة ! . إن الألم لا سخيف ولا يشع — إنظري هذه الشمس التي تنحدر للمغيب — إن للشمس بقعها ، والشمس على رغم من بقعها هي حياة الأرض — هي وحدها الحياة — والسعادة أيضاً لها بقعها ... ولك أن تسميها آلاماً ... ولكن هذه الآلام هي التي تجعلنا نقدر السعادة التي نفوز بها ، والحياة بالقلب هي الحياة الثامنة ، أما من يبلد قلبه ؛ من يخنقه فهذا إنما يحيا حياة هندسية في ناحية واحدة » .

هذا الشاب المتوقد كم عذبه إحساسه ، وشق باطنته ؛ فكان يحس في قرارة نفسه بعد أن أنهى آماله ، وتحطمت أحلامه — أنه يحسن به أن يستقر ، ويهدأ ويلقي جسمه المنكود للتعب ، ونفسه المنهوكة المثقلة بأعباء الحياة في ركن يستكن به .. في بيت يربطه الرباط المقدس ، وتظلله ظلال وارفة من التآلف والحنان .. ولكن أنى له ذلك ؟! ألم يحاول أن يتزوج من ميمي الفتاة التي أحبها ، وأحبته واستغرق الإثنان في حبهما ، حتى إذا أشرف على الزواج وقف ذلك الجدار المرتفع من التقاليد . حائلاً دونه ودون ما يصبو إليه .

وليلى ؟ .. الفتاة الظريفة الحركة الحلوة التعبير ، الناضجة الجسم ، السمراء اللون ، الدائمة التفكير ... لقد هام بها فجاء إليها مرة قائلاً « .. إن هذه اللحظة رهيبة في حياتي فهل توافقين على الزواج مني ؟ ... » فتجيبه « يا حبيبي المسكين أجننت ؟! » .

وفي هذه اللحظة الرهيبة تتبين له حقيقة ليلى ، وتنكشف له

سطوراً من صفحات ماضيها القاتم ، وتزرع فى قلبه المفتون أشواكاً ، وتذر فى عينيه حفنة من رماد !

ويتحطم كل أمل له فى البيت المنشود ، ويظل الاستقرار بعيداً عنه ، نفوراً منه ، ويظل قلبه المرهف يتجرع الصاب فى صمت !.

وينظر إلى سجل أيامه الماضية من بعيد وهى متوارية خلف آفاق الماضى ، والدموع تملأ قلبه ، والغصة فى حلقه .

وذات مرة تسأله أمه :

— يا بنى ألم تفكر فى الاستقرار ؟

— الاستقرار ؟ ! . . إن البيوت الثابتة إنما أخترعت لأن الإنسان اشتهى السلامة وطلب الأمن ، وأراد أن يكون مطمئناً إلى ما يتوقع .. فإن الخيال لمتة .. والحياة تظل تجربة حتى يكون للانسان بيت ويشعر بأنه له ، ويصبح هو ملكاً لهذا البيت ، مشدوداً إليه ، مقيداً به ، والناس فى العادة يرتاحون إلى هذا الشعور ، ويحبون أن يكونوا على يقين من أن هناك وسادة ينضون عليها رؤوسهم كل ليلة ، وأن هناك إمرأة يسمونها الزوجة ترقد إلى جانبهم .. ثم فإن الإنسان إنما يطلب البيت لأنه يطلب الزوجة ، وهو يطلب الزوجة لأنه يريد أن يريح نفسه من متاعب الإحساس الجنسى ! ! كأنما هو يريد أن يفرغ من الأمر مرة واحدة وفى لحظة واحدة .. هذا هو الاستقرار . . وليس فيه ما يخدم الآداب والفنون أو يساعد على التقدم .

وهكذا يخلص إبراهيم الكاتب إلى هذه الفلسفة يحاول فيها أن يقنع نفسه ويرضيها بالتعلات ، ويسوغ إخفاقه بأشياء لا يرضاها إلا القلب الكسير !

فلا جناح أن يتجه المازنى فى ذلك الدور المضطرب ، إلى الكآبة يغرق فى لجبها ، وإلى التشاؤم يغسل فى قتامته ، وإلى الألم يستسيغه ، ويستمرى مره ، وإلى اليأس من كل شىء .

وخيل إليه « أن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة بإخلاص إلا بعين يمتزج بها التشاؤم والتسامح ، وأن الدنيا حافلة بالسوء والفجائع ، وأن الحياة فيها — أقوى فنونها — التنبيط ، وأن الإنسان يعيش سنين وسنين ويتصل بمن لا يحصى عددهم من الناس ، ولكن ما أقل الوافق منهم ! . . وأن خاتمة كل حياة الأسف والندم .. وهما جيل ينمو معنا طالماً من أقدامنا ، وقلما نعرف اسمه فى صباناً ، وما أكثر ما نتوهمه جيلاً رائعاً جليلاً .. وإنه لرائع وجليل .. ولكنه مخيب للأمل . . ويعلو الجيل أمامنا ويتضخم ونحن نصعد فرحين بالحياة ، مغتبطين بالعيش ، ثم لا نلبث على الأيام أن تتمهل وتدير عيوننا ، وترجع البصر فيما خلفنا ووراءنا ، فتأخذ عيوننا شقوق الفضائح وفدافد اليأس ، وأودية السقوط . . ومع ذلك نظل نصعد فى جبل الندامة ، وماذا عسانا نصنع غير ذلك ؟ ويجىء يوم نهرم فيه ، وتكل أرجلنا ، وتجف أنسجتنا ، ونسيا بالاسفاد ، فنقعد على قنة مريحة ، وننظر إلى جداول الحياة المنحدرة . . الحياة التى تظل تترقرق ، ويظل واديها خصيباً ، وإن أخفقنا نحن ، ونشفنا واحداً بعد واحد فتتضل بذكرياتنا ، وتبدو لنا هذه الذكريات أجل وأسى من الحوادث التى وقعتها ! » .

هذه الصورة الرمزية القاتمة الدقيقة التى رسمها المازنى ليمثل فيها أدوار الحياة الإنسانية تمثيلاً يحمل إلى النفس كثيراً من الأسى والحسرة . . هى خلاصة فلسفة ابراهيم الكاتب بعد أن ألقى رحاله فى أحضان اليأس ، والإخفاق ، يحسب أنه معذور إذا بكى إساره ، وحاول أن يتلهى بسجنه .. وبدت له الصور القاتمة فى خيلته ، صور الذكريات الحلوة المرة ، الباسمة القاتمة « أجل وأسى من الحوادث التى وقعتها » فى نظر اليائس على الأقل !

وإلا فماذا كسب من الذكرى ؟

أحب مارى ثم أراد القدر أن يسخر بمنطق الحب ، فافترق عنها . . ولكن ذكراها معها ظلت حية تسعر مخيلته ، وحببته إلى الريف موطن العزاء والسلوان . . حتى إذا أحب ثوثو بقيت ذكراها تملأ قلبه مرارة . . ثم تحول حبه إلى ثوثو قبضة من إخفاق . . وبعضاً من ذكريات كانت تعذبه وهو غارق إلى أذنيه فى حب ليلى ! .

ومع ذلك فهو يحسب الذكريات « أجل وأسى من الحوادث التى وقعتها » .

(البقية فى العدد القادم) غالب لطفى قرمان